لولا الإسلام لما أصبحت العربية لغة عالمية

للواء الركن محمد شيت خطاب
عضو المجمع العلمي العربي ببغداد
وعضو اللجنة المجمعية بالرباط

— 1 —

كان من فضل الاسلام على العرب ، انه وحد صفوفهم ، ووحد كلمتهم ، واشاع فيهم الضبط والنظام، وخلق فيهم انسجاما فكريا ، فاصبحوا يعملون تحت راية عقيدة واحدة ، لتحقيق هدف واحد ، هو اعلاء كلمة الله .

كانوا قبل الاسلام ضعفاء ، فاصبحوا بالاسلام اقوياء ، وكانوا قبل الاسلام متفرقين ، فأصبحوا بالاسلام موحدين ، وكانوا قبل الاسلام مشركين ، فاصبحوا بالاسلام موحدين ، وكانوا قبل الاسلام مستعبدين ، فاصبحوا بالاسلام فاتحين .

وكان العرب قبل الاسلام متخلفين سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وعسكريا ، فرفع الاسلام مكانتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية .

كان الفرس والروم سادتهم فى العراق وارض الشام ، وحتى الاحباش كانت لهم صولة وجولة ومكانة فى اليمن السعيد ، فاصبح العرب بالاسلام سادة الفرس والروم والاحباش وسادة امم اخرى لا تعد ولا تحصى من الصين شرقا الى قلب فرنسا غربا ، ومن سيبريا شمالا الى المحيط الهندي جنوبا .

وكان العرب اقل حضارة ومدنية من الفرس والروم خاصة ، فاصبحوا بالاسلام قادة الحضارة العالمية ورواد المدنية فى الدنيا .

وكانوا فقراء معدمين يسكنون الخيام فى الصحراء فاصبحوا بالاسلام اغنياء موسرين يسكنون الحواضر على ضفاف الانهار .

وكانوا من الناحية العسكرية لا يطمعون ان يحموا ارضهم من الفرس والروم وحتى من الاحباش ، فاصبحوا بالاسلام لا يطمع احد فى حماية ارضه من قوتهم القاهرة التي ملأت الارض سماحة ونورا وعدلا.

لقد كان للاسلام اثر اي اثر على العرب ، بدلهم من حال الى حال ، وجعل منهم امة لها مكانتها ولها اعتبارها ولها تاثيرها فى سير الاحداث العالمية ولها كلمتها المسموعة بين الامم .

ان الاسلام هو الذي جعل من العرب قوة ضاربة وجدت لها (متنفسا) فى الفتح الاسلامي العظيم .

ولو لم ترفرف رايات الفاتحين شرقا وغربا ، لما كان للعرب المسلمين مكانة بين الامم فى النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية ، لذلك يمكن القول بأن اثر الاسلام عسكريا فى العرب ، هو الاساس الاول لمكانتهم السامية بين الامم ، لان الدول لا تحترم غير الاقوياء ، والقوي وحده هو الذي يستطيع أن يؤثر فى سير الاحداث العالمية ، سواء كان هذا التاثير هدفه الخير للعالم كما فعل المسلمون الاولون، ام كان هدفه الشر والخراب والدمار كما فعل جنكيزخان والتاتار قديما والاستعمار باشكاله وصوره حديثا.

وقد انتصر العرب بالاسلام ، فكان انتصارهم انتصار عقيدة لا مراء .

وكان من بعض نتائج الفتح الاسلامي ، أن العربية اصبحت لغة عالمية .

— 2 —

ولكن القول بأن انتشار اللغة العربية بين الامم الاخرى : كان نتيجة من نتائج الفتح لا يغني عن كل قول .

فالواقع ان **القرآن الكريم ، كان له اعظم الاثر في انتشار اللغة العربية** بين الامم ، فهو كتاب الاسلام الاول وكتاب العربية الاول ايضا .

نزل القرآن الكريم بالعربية : (انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) (1) ، وقال تعالى : (وكذلك انزلناه قرآنا عربيا) (2) ، وقال تعالى : (قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون) (3) ، وقال تعالى : (وهذا لسان عربي مبين) (4) ، وقال تعالى : (نزل به الروح الامين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين) (5) ، وقال تعالى : (وكذلك انزلناه حكما عربيا) (6) ، وقال تعالى : (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) (7) .

وخرج العرب المسلمون الذين اختزنتهم الصحراء قرونا طويلة : القرآن الكريم في يد ، والسيف في يد اخرى ، يدعون الناس الى دينهم ويبشرونهم به ، فمن دخل فيه كان كأحدهم له ما لهم وعليه ما عليهم .

وكانت تعاليم الاسلام في القتال واضحة المعالم جازمة الاهداف : الاسلام ، او الجزية ، او القتال .

وانتشر الاسلام بين الامم انتشارا عظيما ، ودخل الناس في دين الله افواجا في فترة مد الفتح الاسلامي العظيم الذي ابتدأ سنة احدى عشرة الهجرية (632م) وانتهى سنة ثلاث وتسعين الهجرية (711 م) ، وكان مع قادة الفتح الاسلامي وجنوده قادة الفكر الاسلامي وجنوده : يدعون الى الله على بصيرة ، ويبشرون بدينه على هدى ، ويعلمون العربية لغة القرآن الكريم، ويلقنون القرآن للناس عقيدة ولغة .

وبعد انحسار مد الفتح الاسلامي العظيم ، كان هناك مد آخر لا يقل خطورة واثرا وتأثيرا من مد الفتح الاسلامي ، هو مد الفكر الاسلامي علوما وآدابا وفنونا ، وكانت **لغة الفكر الاسلامي هي العربية** لغة القرآن الكريم .

كان على كل مسلم من غير العرب ، أن يتعلم العربية او قدرا معينا منها ، ليستطيع أن يصلي ويتفهم مبادىء دينه الحنيف .

وبرز في ميدان قادة الفتح وقادة الفكر رجال من غير العرب ، جعلوا العربية لغتهم واعتزوا بها ودافعوا عنها واهتموا بأمرها — لانها لغة دينهم ولغة عقلهم .

برز من قادة الفتح في ميدان المغرب العربي وحده ابو المهاجر دينار وموسى بن نصير وطارق بن زياد .

وبرز في ميدان قادة الفكر ما يضيق عن الحصر، يكفي ان نذكر منهم سيبويه امام النحو والصرف والبخاري امام الحديث الشريف وأبا حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي امام الفقهاء ... الخ -

— 3 —

لقد كان **للقرآن الكريم اعظم الاثر في انتشار اللغة العربية** ، حتى اصبحت في العالم لغة الحضارة والمدنية قرونا طويلة .

وكان **للفتح الاسلامي العظيم اعظم الاثر في انتشار اللغة العربية ، بحيث اصبحت لغة عالمية لها** شأن حاسم في قيادة الحضارة العالمية .

وحين انتهى الفتح الاسلامي بعد أن بلغ مداه وحقق اهدافه ، بقي **القرآن الكريم** الحارس الامين للعربية **وهمزة الوصل بين الشعوب الاسلامية .**

ولولا الاسلام لما تأتى للغة العربية أن تنتشر في العالم ، **فتؤثر في كل لغات العالم تقريبا .**

---

1) الآية الكريمة في سورة يوسف (12 : 2) .
2) الآية الكريمة في سورة طه (20 : 112) .
3) الآية الكريمة في سورة الزمر (29 : 28) .
4) الآية الكريمة في سورة النحل (16 : 102)
5) الآية الكريمة في سورة الشعراء (26 : 195) .
6) الآية الكريمة في سورة الرعد (12 : 27) .
7) الآية الكريمة في سورة فصلت (41 : 3) .

ان لغة القرآن الكريم ، قد خالطت كل لغـــات الشعوب الاسلامية واثرت فيها اعظم التاثير .

والذين لا يعرفون التركية والفارسية والاوردية والبنغالية — مثلا — يستطيعون حين يصغون الـى المتكلمين بها ، أن **يفهموا كثيرا من مفرداتها لانها عربية خالصة .**

وليس فى ذلك عجب ، لان شعوب تلك اللغات بعد اسلامها ، اقتبست من لغة القرآن الكريم الـذي نتلوه صباح مساء كثيرا من المفردات العربيـــة الفصيحة .

ولكن العجب أن تغزو لغة القرآن شعوبا غيـر مسلمة ، فتجد **فى اللغة الانكليزية والفرنسية والالمانية** ... الخ ... **كثيرا من المفردات العربية .**

والاعجب من ذلك أن يؤلف مستشرق روسـي حديث معجما عن : **اللغة العربية فى اللغة الروسية ! !**

لقد اصبحت العربية بعد الاسلام وبالاسلام لغة حضارة ، غمرت بأنوارها الدنيا وغطت كل اللغات فى العالم تقريبا .

وكانت جامعات بغداد ودمشق والقاهرة وتونس والمغرب والاندلس ، هي الجامعات المعتمدة فى العالم كله .

وكان طلاب العلم والمعرفة يقصدون هـــذه الجامعات من شتى انحاء العالم .

وقد كان من خريجي جامعات الاندلس بعـض الذين اصبحوا بابوات فى روما .

فلما **ضعف العرب ضعفت العربية** ، فليـس الضعف فى العربية ولكن الضعف فى العرب انفسهم .

ولقد بذل الاستعمار القديم والحديث قصارى جهده لترسيخ اقدام الاستعمار الفكري فى عقول العرب ونفوسهم ، **فشكك فى مقدرة اللغة العربيـــة وفى طاقاتها وبث اراجيفه دعوة للعامية ومطالبة بكتابـة العربية بحروف لاتينية .**

وهذه الدعوات مريبة دون ادنى شك ، هدفها جعل الشعب العربي شعوبا وجعل القرآن الكريم غير مفهوم المعاني والمباني الا للذين يدرســون العربية الفصحى .

ولكن هذه الدعوات المريبة لن تنجح ابدا ، ما دام حارس العربية الاوحد وهو القرآن الكريم موجودا وصدق الله العظيم : (انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون) (1) .

— 5 —

فى عام 1964 زرت الباكستان برفقة الرئيـس المرحوم عبد السلام عارف .

وصلينا الجمعة فى مسجد (كراجي) الكبيـر ، فكانت خطبة امام الجامع بالعربية وحدها .

وبعد انقضاء الصلاة ، سأل المرحوم الرئيس عبد السلام امام الجامع : « لماذا لا تخطب بالعربيـة والاوردية ليفهم السامعون من غير العرب ما تقول ؟ »

واجاب الامام فورا : « لا ادنس منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغة غير لغة القرآن الكريم » .

ووتتها همست فى اذن الرئيس : « هل نحـــن قوميون أم هؤلاء ؟ » .

واوينا الى دار الضيافة ، وجلسنا ليلا نتحـدث وكان الخدم على باب الغرفة يتطاردون بحفظ القرآن الكريم .

واستقبلنا رئيس الجامعة الاسلامية فى (دكا) عاصمة باكستان الشرقية بخطاب ، كان بلغة الجاحظ لا بلغة القرن العشرين .

وكان فى نية حكومة الباكستان أن تتخذ العربية الفصحى لغة رسمية ولا تزال هذه نيتها حتى اليوم ، لو عاونت الحكومات العربية بصدق وأمانة واخـلاص فى هذا المجال .

ان كل مسلم على وجه الارض يقدس اللغـة العربية ويفضلها على لغته الاصلية ، اذا كان هـذا المسلم ملتزما بتعاليم دينه الحنيف .

ذلك لانه يعتقد ، بأن العرب هم الذين نقلوه من الظلمات الى النور ، وانهم ابناء الصحابة الكرام وابناء قادة الفتح الاسلامي العظيم وجنوده ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم منهم والقرآن الكريم بلغتهم ... وهذا ما كان يردده الباكستانيون على اسماعنا من الرئيس ايوب خان حتى اصغر رجل فى الباكستان .

---

1) الآية الكريمة فى سورة الحجر (15 : 9)

لقد رايت بعيني رجلا باكستانيا اراد ان يتلمس احدنا بيده فلم يستطع لشدة الازدحام ، فما كان منه الا ان لوح بيديه في الهواء نحونا من بعيد ثم لامس بيديه قلبه ووجهه لتناله (البركة) من العرب .

والمسلمون غير الملتزمين بدينهم ، يعادون أول ما يعادون القرآن الكريم لغة وعقيدة ، وشواهد التاريخ الحديث كثيرة لا تعد ولا تحصى .

ان بين الالتزام بالدين الحنيف ، علاقة وثيقة بتبني اللغة العربية وانشارها ، ما في ذلك ريب .

ولست انسى يوم كنت مسافرا على متن طائرة صينية شيوعية عام 1964 ، فلمست من المضيفة عناية خاصة بي حين عرفت انني عربي مسلم . ولم اكن اعرف انها مسلمة ، فاردت ان اكافئها بهدية نقدية جزاء خدماتها ، ولكنها قالت لي : « لا اريد الا ان تكتب لي بالعربية جملة : بسم الله الرحمن الرحيم ، لآخذها هدية ثمينة اقدمها لوالدتي المريضة في الصين » .

ولما كتبت لها هذه الجملة المباركة ، طـــوت الورقة باعتناء واهتمام شديدين ، ثم قبلتها ووضعتها على صدرها بكل اجلال واحترام .. !

ترى ! **هل يدرك العرب اليوم ، اهمية التمسك بالاسلام، والدعوة الى التمسك به** لحاضرهم ومستقبلهم ولمصيرهم ؟ !

انهم بذلك يخدمون انفسهم قبل غيرهم ، ولكن ياليت قومي يعلمون !!

ورد علينا من الاستاذ كامل باقر الموسوي مـــن الكوفة بالعراق جواب نقتطف منه ما يلي :

اللغـــة العربية موطنهـــا الاصلـــي هو الجزيرة العربية ونعني اللغة المتداولة من العصر الجاهلي حتى يومنا هذا اي اللغة العربية الشمالية (المضرية) حيث أن اللغة الجنوبية (القحطانية أو الحميرية) قد انقرضـــت تماما عندما انفصلت عنها اختها الشماليـــة وهي لغـــة الحجاز والبحرين واليمامة ونجد، ولم يبق منها الا آثارها المنقوشة على خرائب اليمن ودولها القديمة في حميـــن وسبا وحمير فكانت النقوش بالخط المسند وهي ابجدية مختلفة كل الاختلاف عما هو في لغة مضر التي منها لغة القرآن الكريم .

ومن المعلـــوم ان اللغة العربيـــة قد اقتبســـت كلمات اعجمية اصبح بعضها وكانه عربي خالص ومـــن هذه الالفاظ ، قرطاس ، درهم ، دينار ، سجل ، كرسي قصر ، برنس ... الخ وقد دخلت بعض هذه الكلمات في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم كذلك والمعروف أن انتشار اية لغة يتم عن طريق التدوين أو تبادل الرسائل وما الى ذلك ، وكل هذا لاتعرفه عن العرب قبل الاسلام سوى ما نقراه عن الشعراء الجاهليين وكان من بيـــن هؤلاء من يتنقل خارج الجزيرة العربيـــة الى العـــراق والشام خاصة اما لاغراضه الشخصية او لغيرها مثل الاعشى وامرؤ القيس وكان في العراق قبائـــل عربيـــة عرفت بالمناذرة بعد تأسيسهم دولة بهذا الاسم وجعلوا الحيرة عاصمة لهم وكانت في الشام دولة الغساسنـــة ولكن الغالب ان لغة هؤلاء ليست العربية كما ظهر ذلك في نقوش آثارهم فكانت تكتب بالارامية بعكس المناذرة فان جلهم من العرب كما فصل ذلـــك الاستاذ جرجـــي زيدان في كتابه « العرب قبل الاسلام » ، فاللغة العربية كانت محصورة اذن في الجزيرة العربيـــة وما حولهـــا واستمر هذا الحال حتى القرن الســـادس الميلادي تقريبا ثم جاء الاسلام واخذ الرسول (ص) يدعو الى الديـــن الجديد داخل الجزيرة في أول الامر وكان القرآن الكريم هو دستوره فانتشر في عهد الخلفاء الراشدين بواسطة الفتوحات الاسلامية واتسعت رقعة نفوذه اكثر في عصر الامويين والعباسيين حتى بلغ حدود الصيـــن شرقـــا والاندلس غربا .

وبما ان لغة هذا القرآن هي العربية وان المسلمين ملزمون بقراءته فقد اصبح التلازم واضحا في الاســـلام واللغة العربية .